أين الخلل *

سؤال معتاد ، كثيرا ما يطرحه بعضنا على بعض ، عندما تحتد المناقشة ، ويكون موضوعها هو هموم الوطن والناس ، ثم أننا نجد أنفسنا وكأننا قد وصلنا إلى مفترق طرق متعددة متداخلة ، حتى وكأننا أصبحنا نرد على شاعرنا الراحل " كامل الشناوى " – مع اختلاف الهدف – " ... ويشب فى قلوبنا حريق ويضيع من قدمنا الطريق " . ولا أزعم أننى سوف اقدم الجواب الكافى و " تذكرة العلاج " الشافية ، وإنما هى محاولة لأن نحسن التشخيص ، فهذا نصف الطريق إلى العلاج .

خلال زيارة لى لمدينة (بوسطن) الأمريكية منذ عدة سنوات ، حضرت اكثر من مرة اجتماعا كان يعقده عدد من الطلاب المبتعثين وبعض المهاجرين العرب بصفة دورية ، يتدارسون فيها شئون بلدان الأصل وجوانب من الثقافة الدينية ، سعيا منهم إلى المحافظة على العلاقة التى تربطهم بالذات الحضارية ، وخوفا من الذوبان فى الثقافة الأمريكية ذوبانا تاما ، وهو أمر مفهوم دوما بالنسبة لسلوك أى أقلية تعيش فى محيط ثقافى متلاطم الموج ، مثل ذلك الذى يعيش فيه الأمريكيون .

ومما كانت له دلالاته حقا أن هؤلاء كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى قاعة من قاعات أضخم معهد تكنولوجى فى العالم (M.I.T) ، ويكون من موضوعات الحديث المطروح ، ما يتصل كثيرا بالعقيدة الإسلامية ، متضمنا ، أحيانا ، نقدا للثقافة الغربية وخطرها على الثقافة الإسلامية ، بتفسيرات وأمثلة ، ربما لا يستطيعون قولها فى بلادهم الإسلامية .

وفى إحدى المرات ، كان شاب يتحدث عن عدد من القيم ، مثل : الصدق ، الأمانة ، الشرف ... الخ ، وضرورة أن يحافظ الإنسان عليها مستشهدا فى ذلك بالعديد من النصوص الدينية ، سواء كانت آيات قرآنية أو أحاديث نبوية .

وعندما انتهى الشاب من حديثه طلبت التعقيب ، وأذكر أنى قلت يومها ما معناه ، أن الحديث الذى سمعناه ، على نبل مقصده ، حديث (مطلق) عن القيم ، مجرد من الزمان والمكان ، وهذا يستحيل أن يفيد أحدا على وجه العموم ، وفى عصرنا الحاضر على وجه الخصوص ، لماذا ؟ لأن القيم (إفراز) اجتماعى لوضعية مجتمعية ذات شروط موضوعية فى البنية الاقتصادية والنظام الاجتماعى والتوجيه السياسى والخبرة الشعبية العامة ، مستدلا على ذلك بأمثلة من واقع التاريخ وتطور المجتمع العربى ، وخاصة فى شبه الجزيرة العربية .

---

* الأهرام : فى ٢٧ / ٧ / ١٩٩٨ .

كان المثال الذى سقته هو الخاص (بالكرم) الذى اشتهر به العرب من قبل ، فهو لم يكن اختيار عن طواعية لمبدأ خير جليل ، وإنما هو نتيجة ظروف المعيشة فى صحراء قاحلة ، قلما كانت تجود بأسباب الارتياح المعيشى ، حتى فى حدودها الدنيا ، مما جعل الفرد الذى تساعده الظروف فى الحصول على طعام أو ماء أو كساء ، لا يتردد فى إعطاء من يجيئه سائلا محتاجا ، لأنه هو نفسه قد يتعرض لظرف قاس يعانى فيه من نفس الحاجة . ثم إذا بالظروف تتغير فى العقود الأخيرة ، ففاضت أنهر الثروة فى الدول العربية البترولية ، وإذا بهمس هنا وهمس هناك عن مظاهر (شح) و (إمساك) غير قليلة ، لا تخطئها عين ، فكثيرا ما يدفع تدفق المال صاحبه إلى مزيد من حبه حبا جما ، والسعى إلى الاستكثار منه ، فضلا عن الحرص الشديد على ألا ينقض منه شئ

وانبرى شاب من الحاضرين يعلن أسفه لأن يسمع هذا الكلام من واحد مثلى فى مجلس محوره : الذات الحضارية للأمة العربية الإسلامية ، حيث أن هذا التفسير ذو رائحة ماركسية ! فكأننى بهذا أعزف نغمة " نشازا " فى وسط سمفونية لها " نوتتها " الموسيقية المباينة .

الحق أقول لقد أذهلنى التعقيب وأحزننى ...

ولم يكن ذهولى وحزنى بسبب اتهامى بما ليس فى مذهبى ، فلقد تعودت أن أسمع شيئا من هذا أحيانا عندما أتحدث إلى بعض المتدينين ، وأسمع عكسه ، أحيانا عندما أتحدث إلى بعض الشرائح اليسارية ، وإنما كان ذهولى وحزنى بسبب منطق التفكير نفسه ، فليست المسألة هى (لون) الفكرة وإنما هى (منطقها) ...الفكرة لا تعاب لمجرد أنها وجودية أو ماركسية أو رأسمالية ، وإنما ، هل هى تتفق مع منطق الواقع الاجتماعى أم لا ؟ والغريب – ولعله ليس غريبا – أن الحكمة الإسلامية نفسها تؤكد على أن الحكمة ضالة المؤمن ، فهو يطلبها أنى وجدها ، ولا يبالى من أى وعاء خرجت !

قلت شيئا من هذا معقبا على ما قاله الشاب الفاضل ، وأضفت إلى ذلك ، أن هذه الفكرة نفسها موجودة بوضوح وكثافة لدى المفكر العربى المسلم الشهير " ابن خلدون " فى مقدمته المعروفة ، إلى الدرجة التى جعلت البعض يصنفه ضمن القائلين (بالحتم الجغرافى) ، أى أن الظروف الجغرافية ، من سطح ومناخ وبيئة طبيعية ، هى التى تحدد تماما أخلاق الإنسان ، بل الأمم والشعوب ، كما أنه عقد فصلا فى مقدمته ، على قدر كبير من الأهمية والخطورة ، ذلك أنه أكد فى هذا الفصل على أن التعليم والعلم تابع (للعمران) ، والعمران المقصود هو ما نعنى به الآن جملة الشروط الأساسية للنهضة عندما تتحقق وتفرز تقدما وتطورا .

تداعت كل هذه الخواطر فى ذهنى وأنا أرقب وأشاهد وأسمع الجمهرة الكبرى من طلابى بالجامعة ، والفئة التى أتعامل معها هى من (الخريجين) الذين يواصلون دراساتهم العلمية ، وكيف يحدث تململ وضجر عندما أشير إلى ضرورة قراءة المرجع كذا أو المصدر كذا ، وكيف أنهم - حتى على هذا المستوى العالى - يفضلون أن لو كان هذا كتاب مقرر يضم بين دفتيه المطلوب كله (على بعضه) ، وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والمجلس الأعلى للجامعات قد شغل - ولا يزال - بأمر " تقنين " فكرة الكتاب المقرر على طلاب المرحلة الجامعية الأولى !!

إن الكثيرين يبادرون إلى اتهام الخريجين بأنهم اصبحوا لا يعرفون للعمل (قيمه) ، كمظهر من مظاهر التدهور القيمى وأنهم قد أصبحوا " غرباء " على القراءة ، وكأنها قد أصبحت مظهرا من مظاهر " زمان "! .

صحيح أننا عندما نفسر هذا الاتجاه لدى الطلاب ، يمكن أن نجدد أسبابا مباشرة متعددة مثل : (الارتفاع الكبير فى أسعار الكتب) ، و (سوء الخدمة المكتبية) و (ندرة الكتب المطلوبة فى المكتبات العامة) و (عدم توافق مواعيد العمل بالمكتبات ومواعيد طلاب الدراسات العليا) و (انشغال كثيرين بأعمال متعددة لكسب لقمة العيش) و (المواصلات) ، وطغيان (الثقافة المسموعة والمرئية) ..... الخ .

وهذه كلها أسباب لا أستطيع أن أنكر وجودها وتأثيرها السلبى ، لكن الذى أريد أن أشير إليه هو سبب أكبر وأهم وأخطر ...

ألسنا نتهم الأجيال الجديدة بأنها لم تعد تعرف للعلم والتعليم قيمة رفيعة تستحق من أجلها بذل العرق والجهد الشاق ؟

فما الرأى فى أنى أسائل الجميع بدورى : وهل للعلم والتعليم الآن القيمة الرفيعة فعلا وعملا ، لا كلاما ونظرا ؟

إن الجهد المبذول من الإنسان ، يتوافق إلى حد كبير / مع الهدف المنشود .....

فعندما يكون الهدف المنشود - مثلا - هو إنقاذ الوطن من خطر اعتداء خارجى ظالم ، تجد الجميع يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد فداء وتضحية ، لا يبالون بالثمن المدفوع ، حتى ولو كانت حياتهم وجميعنا يذكر ما كان أثناء حرب الاستنزاف ، ثم حرب أكتوبر .

كان العلم والتعليم ، منذ عدة عقود ، يدفع بالمواطن من اسفل السلم الاجتماعى ليضعه فى أعلاه ، ومن هنا كان كثيرون من الفقراء يصلون الليل والنهار ، كدا وقراءة ومذاكرة

وتحصيلا ، وفتشوا فى أجيال أساتذة الجامعات منذ العشرينات - مثلا -حتى وقت قريب ، وسوف تجدون أن غالبيتهم جاءوا من مواقع اجتماعية فقيرة .....

وفتشوا بين الأجيال الجديدة فى السلك الجامعى الآن ، وادرسوا أى مواقع اجتماعية جاءوا منها ، وسوف تجدون العكس لدى بعض ، يتزايد عاما بعد عام .

وهكذا فى مجالات أخرى ذات التميز الخاص .....

لماذا ؟

لأن العلم والتعليم وحده لم يعد هو (معيار) الوصول وسلم الصعود !! برزت هناك وسائل أخرى ، وأساليب ليست من مستوى العلم والتعليم ، شرفا وطهرا وسموا .....

بل أن العلم نفسه والتعليم أصبحت علامات استفهام تحيط به ! حيث أن الشهادة التى كانت مجرد (رمز) للحصول عليها ، قد أصبحت هدفا فى حد ذلك ، وامتلأ السوق بكتب (الأسئلة) ونماذج الإجابة عليها ، حتى لقد أصبح واضحا أمام الطالب أنه إذ تمكن من (حفظها) فقد يضمن نجاحه إلى حد كبير ، وبالتالى يستطيع أن يحصل على (الشهادة) بغض النظر عما إذا كان قد تعلم (بالفعل) أم لم يتعلم .

وناهيك عما أصبح مشهورا من (شيوع) الغش ، بحيث لا يكون النجاح والحصول على الشهادة دليل تعلم وتعليم دائما ، وإنما هو ، فى بعض الأحيان دليل مهارة فى أمور أخرى ، قد تتناقض تماما مع ما يقوم عليه العلم والتعليم من مبادئ وما يستهدفه من غايات .

وفتش بنفسك فى وسائل الإعلام ، وخاصة التلفزيون ، لترى أى المجالات يحتل مركز الصدارة والإنفاق ، ورتبها ، وسوف تجد العلم فى مواقع متأخرة عن مجالات أخرى اقل قيمة ، حيث النهوض الاجتماعى والعديد من المعايير الأخلاقية .

وهكذا أصبح المعلم (يستخسر) أن يبذل فى سبيل هذه القيمة جهودا ملحوظة ...

فهل نلومه هو ؟ ... إن البنية المجتمعية العامة هى التى تستحق اللوم .

ومن هنا فإن مجتمعنا - فى مجمله - بحاجة إلى :

- أن يحل العلم والتعليم مرتبة متقدمة فى الإنفاق الفعلى ، وفى مساحة الاهتمام ، وفى معايير التفضيل والتقويم .
- التوجه إلى القطاعات التى أهملت فترات طويلة ماضية لتنال جهدا مضاعفا مثل المرأة والفقراء والأميين والمعاقين .

- الحذر الشديد ، وحدة اليقظة ، ونحن نتحول إلى (الخصخصة) ألا تطغـــى الديمقراطيـة الاقتصادية على ما طال شوقنا إليه من ديمقراطية اجتماعية .
- الوعى بأن ديموقراطية التعليم لا تعنى فقط التكافؤ فى فرص الالتحاق بمعاهده ، وإنما تتعلق كذلك بما يتم داخل هذه المعاهد من معاملات ، والأخطر قيمة ، ما ينتظـره الخريـج مـن فرص عمل .

إن كل هذا ، وهناك غيره بطبيعة الحال ، من شأنه أن يجعل شبابنا يبذل مزيدا مـن الجهد ، سعيا للتعلم والتعليم ، وطلبا للمعرفة والعلم .